

دراما المسلسلات التلفزيونية العربية بين واقع الإنتاج وقيمة الخطاب Drama Arabic TV series between reality production and production values

أ.وسام طمين

جامعة قسنطينة 3

ouissem.tamine@gmail.com

تاريخ النشر: 2018/06/28

تاريخ القبول: 2018/06/02

تاريخ الإرسال: 2018/01/10

ملخص:

لازالت دراما تلفزيونات العالم الثالث و العالم العربي على وجه الخصوص معيبة و لا حضور لها على الساحة الدولية، اللهم إلا من بعض الأفلام التي قد تشارك في المهرجانات الدولية هنا أو هناك، و حتى الأعمال التي يقدر لها الوصول للعرض أمام الجمهور غير العربي هي خطابات صنعت بالمقاس لإرضاء الغرب و تملّقه و لا تعبّر عن قيم الشعوب العربية و ثقافتها الحقيقية، بل إن النقد الدرامي الغربي لم يتطرق إلى الخطابات الدرامية المنتجة في العالم العربي عدا بعض التهم هنا أو هناك والتي في كل الأحوال لا تتعدى كونها مجرد إشارات عابرة.

الكلمات المفتاحية: الإنتاج الدرامي العربي، الدراما التلفزيونية العربية، المسلسلات العربية، القيم في الدراما التلفزيونية، الخطابات القيمية.

Abstract :

The Third World and the Arab world in particular TV drama is flawed and has no presence on the international scene, except for some films that may participate in international festivals here or there., and even the works that are accessible to the non-Arab audience are speeches made for to satisfy the West and do not reflect the values and the real culture of the Arab people . Critical Western drama did not touch the dramatic speeches produced in the Arab world except for some charges signs here or there in all cases is no more than just a passing signals

Keywords: Arabic Drama Production, Arabic TV Drama, Arabic Series, Values in TV Drama, Value discourse.

مقدمة:

فتحت الأعمال الدرامية التلفزيونية آفاقا واسعة في تقديم موضوعات شتى كان البعض منها حكرا على-أو ينقل- محصورا على الانتاج السينمائي بسبب طبيعته وإمكانياته من ناحية وطبيعة التلقي من ناحية أخرى، إضافة إلى انه كان الرائد ولا يزال في مجال التناول القيمي وله الخبرة الواسعة في تقديم هكذا موضوعات مما قاد إلى بلورة نوع درامي خالص يسمى الدراما التلفزيونية والتي أضحت خطاباتها من أهم النتاجات الفكرية و المعرفية الحديثة التي تحلل جوانب المجتمع المتعددة وتتبع مراحل تطوره وانعكاسات هذا التطور على الفرد، و الجماعة و الأسرة و القيم و ما يصاحبها من تغير في السلوك و التوجهات وأصبح مضمون هذه الوسائل الإعلامية و الثقافية لا يقل أهمية عن المضمون الأدبي و الفكري و التاريخي.

فعلى الرغم من ثراء وتنوع المادة الإعلامية تظل الدراما في التلفزيون من أحب الفنون لدى المشاهد العربي، وقد أثبتت نتائج البحوث الإحصائية وعمليات الاستفتاء وقياس الرأي العام سواء على المستوى العربي أو المستوى العالمي أن الدراما التلفزيونية تأتي دائما في مقدمة ألوان الفن التلفزيوني التي يحرص المشاهد العربي على مشاهدتها بشغف كبير لقدرتها على الترفيه عنه، وتسليته، ولأنه يجد فيها نفسه وطموحاته ممثلة في مختلف الموضوعات والشخصيات التي تجسدها له، ومن هنا كان حرص التلفزيون العربي على العناية بالدراما بكافة أشكالها وقواها الفنية باعتبارها أكثر الفنون قدرة على الوصول إلى وجدان وفكر المشاهد وبالتالي فهي أكثر قدرة على توصيل ما يسعى لتوصيله إلى الجمهور المستهدف من قيم وتقاليده وأخلاقيات، ومن ناحية الخطابات التي تتصدى لها الدراما في التلفزيون فقد شهد المجال أكثر من تطور كاستجابة حتمية للمتغيرات الاجتماعية والسياسية التي تعيشها المجتمعات العربية بصفة عامة وأما على مستوى الإنتاج فكثير من الدراسات عادت لتؤكد أن واقع الإنتاج الدرامي التلفزيوني العربي يعتبره الضعيف، كما وان غالبيتها اتفقت على انعدام أو ضعف الضوابط والمعايير التي وان وجدت في بعض الدول العربية إلا أنها تتصف بالعمومية، مما يضطر المحكمين إلى الاجتهاد بالاعتماد على أحكامهم الشخصية وعدم استنادهم على الأسس الفنية.

أولا: واقع الدراما التلفزيونية العربية

تشارك الدراما التلفزيونية مع غيرها من الفنون الأدبية الأخرى الرئيسية كالشعر والمسرح والرواية والقصة في مجموعة من الخصائص والسمات التي تميزها كنوع أدبي عن مختلف الأنماط الكتابية في استخدام اللغة كوسيلة للتعبير، ولا تزال تمثل موقفا خياليا في نفوس المشاهد له تأثيره القوي في تحريك مشاعره ووجدانه نحو قضايا معينة تمس مجتمعه بشكل مباشر أو غير مباشر وذلك عن طريق الاتصال بعواطف المشاهد والتعبير عن مشاكله وهمومه وآلامه وطموحاته.¹

ولقد بدأت الدراما العربية المرئية (السينما و التلفزيون) بمحاولات فردية لأناس تهتم بصناعة الفن الجديد، و من منطلق جاد و بنوع من الالتزام الإنساني والأخلاقي، و تحاول أن تطرح بعضا من مفاهيم الصراع الاجتماعي و معاناة الإنسان العربي إلا أن هذه الانطلاقة المبشرة لم تستمر، حيث تحولت بالأخص على يد بعض التجار والأثرياء إلى سلعة تجارية، و تحولت معها القصص الجادة إلى أعمال استعراضية تحتوي على الكثير من الرقص و الغناء و اللهو الفارغ الذي يحول أنظار الجمهور عن قضيته الأساسية في وجود الاستعمار، و أزمات

المجتمع الاقتصادية ، كما صارت تناقش قضايا تافهة تكرر مفاهيم الرضا بالواقع والتسليم به وأصبحت السينما بعيدة عن هموم الناس وقضاياهم².

ورغم ظهور الدراما في بلدان عربية أخرى غير مصر، فإن الملاحظ حتى الآن هو أن هذا الظهور لم ينجم عنه نشوء صناعة درامية فعلية راسخة ومستقلة ذاتيا-ينطبق هذا على جميع البلدان العربية الأخرى تقريبا دون استثناء- حيث تبدو الطفرة الدرامية فيها مرتبهة بدعم الدولة فقط، أي مهذبة بالتوقف في أي لحظة، و بمجرد إيقاف هذا الدعم الذي لم ينجح طيلة أزيد من ثلاثة عقود في تشجيع القطاع الخاص على ولوج مجال الإنتاج، بل أدى إلى إحجام رأس المال الخاص عن ذلك باعتباره مغامرة حقيقية معروفة نتائجها سلفا، وذلك تحديدا لعدم إدراج دعم الدولة ضمن تصوّر عام للنهوض بالصناعة الدرامية ككل، على مستوى التكوين والعرض و التوزيع و المواكبة. والملاحظة التي تهمننا هنا بشكل خاص فحواها أن القسم الأعظم من تلك الأعمال سواء كانت مصرية أو غير مصرية، إنما كان من إنتاج مؤسسات وهيئات تنتهي وتمول من الدولة، ولا يزال هذا هو حال بعضها حتى اليوم. فمنذ ولادته قبل عقود، لم يتوقف القطاع العام عن إثارة السجلات وعن التعرّض للهجمات وعن طرح التساؤل عن جدواه.

وتختلف، بل تتعدّد المواضيع والأفكار التي تعالجها الدراما التلفزيونية العربية حيث أتمها تحاول من أن تستفيد من مختلف المجالات المعرفية كمنبع تستقي منه مواضيعها وأفكارها ويمكن تحديدها في النقاط التالية:3

● **الواقع الراهن:** أصبح الواقع الذي تعيشه الشعوب العربية في شقه الاجتماعي خاصة، مادة خصبة تستقي منها الدراما التلفزيونية مواضيعها مثل: البطالة، البيروقراطية، الظلم... الخ حيث اتجهت بعض المسلسلات إلى معالجة مثل هذه المواضيع بجراة محاولة الخروج من نمط المواضيع القديمة(كقضايا العشق، الخيانة الزوجية...) غير أن الكثير من النقاد يرى أن المعالجة الدرامية التلفزيونية لها تبقى سطحية سواء كانت هذه المعالجة بأسلوب جدي أو أسلوب فكاهي.

● **التاريخ أو السياسة:** منذ بداية إنتاج الأعمال الدرامية والمسلسلات العربية في الثمانينات كانت تصنيفات المسلسلات العربية واضحة ومحددة ومحدودة فهي إما مسلسلات دينية أو اجتماعية، عاطفية أو ريفية بدوية. إلا أن هناك توجهها جديدا للدراما التلفزيونية العربية وهو المسلسل التاريخي المعاصر الذي أخذ يقترب أكثر من الماضي القريب، إلا أن هذا الاقتراب يبقى حذرا فلا يجراً على الدخول في المناطق الخطرة، والتي تقتضي منه المواجهة المباشرة مع الواقع السياسي الراهن والذي تمارس عليه الضغوطات والرقابة حيث أنه كلما زاد الاقتراب من التاريخ المعاصر سياسيا، كلما زادت الألغام الرقابية التي تصادف الأعمال الدرامية.

● **الإبداع الروائي الأدبي:** تعتبر الأعمال الروائية الأدبية والقصص من بين المصادر التي تستقي منها الدراما التلفزيونية العربية مواضيعها كأعمال الأديب المصري "نجيب محفوظ" وأعمال الروائي الفلسطيني "غسان كنفاني" حيث تعتبر أعماله الأدبية التي ترجمت إلى أعمال تلفزيونية من بين انجح المسلسلات.

● الثقافة المحلية: تعتبر الثقافات المحلية البدوية الريفية من بين المصادر التي يستقي منها كاتبوا الدراما التلفزيونية مواضيعهم كقضايا الثأر والانتقام في صعيد مصر، بالإضافة إلى الحكايات الشعبية المتوارثة ولقد أدى تعدد المصادر التي تستقي منها الدراما العربية التلفزيونية مواضيعها إلى اختلاف الأعمال العربية ما بين الدراما الاجتماعية التاريخية، الدينية، والسياسية... الخ. ويعدّ التنوع في المواضيع والأحداث والطروحات والتّوعيات أهمّ ما يميّز الدراما السورية بدورها ويجعلها في مقدّمة الدراما العربية من حيث العمق ومدى المتابعة الجماهيرية، ومما لا شك فيه فإن الدراما السورية وخلال الأعمال الماضية استطاعت أن تقدّم أعمالاً من مختلف الأنماط (اجتماعية-تاريخية-كوميديّة-بيئية) وبالتالي كسبت لها جمهوراً من مختلف فئات وأطياف الشعب العربي الذي وجد ضالته فيها ومعبّراً عن المشكلات والقضايا المتشابهة في الكثير من البلدان العربية.

ولكن إذا نظرنا للأعمال التي أنتجتها الدراما السورية خلال العامين أو الثلاثة المنصرمة، وعلى الرغم من أننا نجد أنها متنوعة إلا أننا ننع أمام مشكلة غياب تنوع التّوع أي بعبارة أدقّ غياب تنوع المواضيع عن الصنف الدرامي الواحد فمثلاً نجد أن عدداً كبيراً من الأعمال الاجتماعية في الموسم ما قبل الماضي تناولت بشكل أساسي قضية العشوائيات والمشكلات التي تعانيها فوجدنا أعمالاً متشابهة بالمضمون ماعداً بعض المحاور الجانبية وحتى أن التشابه بالمضمون تعدّى هذا الجانب ليصل إلى التشابه بالشكل، فنجد أن الممثل نفسه يعمل في عملين متشابهين بالمضمون وربما في الدور الذي يؤديه ولا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة لأعمال البيئة الشامية التي تحولت إلى موضة أيضاً بعد النجاح الذي حققه مسلسل باب الحارة حيث تشابهت الأعمال الشامية بالشكل والمضمون والممثلين أيضاً وبالطبع هذا التشابه لا ينطبق على جميع الأعمال الاجتماعية والشامية فبعضها وبالتحديد الاجتماعية قدّم أفكاراً وطروحات جديدة هامة جداً ولكن النسبة الأكبر هي للتشابه.

ثانياً: الإنتاج الدرامي العربي في مجال المسلسلات التلفزيونية

بينت الدراسات أن كل الناس يتعرضون للدراما التلفزيونية وأن أغلبهم يفضلها عن غيرها من البرامج و لهذا السبب وجدت قنوات متخصصة بها تبثها على مدار اليوم والليل لأنها أصبحت مجالاً استثمارياً جذب التجار الباحثين عن الربح والشهرة أيضاً وربما أن منهم من لا يشاهدها ولا يعرف مدى تأثيراتها الفكرية لدى المتلقين، هذا الكثر الثمين الذي اكتشفه المستثمرون العرب أثناء تهافتهم على التجارة في مجالات ما يعرف بالفضائيات التي أنشأوها في السنوات القليلة الأخيرة وما زالت تتكاثر، تولد عنه ارتباك وفوضى عجيبة في أساليب وأشكال إنتاج الدراما العربية والسبب أنه نشأ طلب عليها أكبر بكثير من المتوفر منها، إضافة إلى انعدام استراتيجيات مقننة لما يسمى الإعلام العربي، فلا ضوابط ولا معايير تحكم هذا الإنتاج الاتصالي الذي يستهدف ويؤثر في العقول والأفهام.⁴

ويلاحظ تزايد نشاط شركات الإنتاج الخاصة تزايداً كبيراً، بحيث أصبحت شريكة للمحطات الحكومية وأحياناً عبر الإنتاج المشترك أو رديفة لها، و منافساً قوياً لها أحياناً أخرى، من حيث كمية الإنتاج الضخم والمكلف معاً، ولكن الأهم من حيث إجادة التسويق، حيث بدأ ذلك بالإنتاج في الثمانينات خارج

مصر في "استوديوهات دبي" و "أثينا" وخطت سوريا على النهج ذاته في "دبي وليبيا"، ثم ازدهر الإنتاج الأردني حتى كَبُوتِه عقب حرب الخليج الثانية، وما لبثت أن تطورت الشركات المصرية و السورية ، سيما مع بناء استوديوهات خاصة، واعتمد عدد من الأعمال على عربات نقل صغيرة أو على تقنية الكاميرا المحمولة وهو ما أعطى دفعة قوية لتزايد حجم الإنتاج بالإضافة إلى إعطائها هامشا أكبر للتنوع في المضامين.⁵ هذا وتعتبر مصر محليا على مستوى المحتوى التلفزيوني العربي القوة الأكبر في هذا المجال منذ فترة طويلة وذلك بإنتاج ما يعادل 67% من إنتاج المسلسلات التلفزيونية في المنطقة. و على الرغم من كون مصر أكبر مركز للإنتاج في المنطقة إلا أن المحتوى الذي يقدمه يخدم السوق المحلية بشكل أساسي مع القليل من عمليات الإنتاج الفني التي تصل بالفعل إلى المشاهدين في أنحاء المنطقة العربية.

كما استطاعت الدراما السورية وضع علامات فارقة أيضا من خلال تقديم فرص جذابة للمنتجين بتكاليف منخفضة. هذا بالإضافة لما تتمتع به من مسلسلات الدراما السورية الطويلة والتي أصبحت جزءا هاما من المائدة التلفزيونية الرمضانية، ولكنها شهدت تراجعا ملحوظا في الفترة الأخيرة بسبب الأحداث السياسية⁶، كما أن الزخم الإنتاجي للدراما السورية لا يعني الجودة والتنوع. فنظرة أولية على المشاريع وفقا لصحيفة "المدن" تقود إلى اعتقاد بأن الأعمال الدسمة قليلة نسبيا، مع التأجيلات التي طالت عدة مشاريع لافتة ، لكن ورغم هذا وبخلاف السنوات القليلة الماضية، تجاوزت الدراما السورية في الموسم الماضي الصعوبات الإنتاجية والتوزيعية مع إعلان صناع الدراما مشاريعهم للموسم الرمضاني الجديد ب30 مسلسلا مختلفا وهو أعلى معدل إنتاجي في البلاد منذ العام (2011).⁷

ولقد طرح دخول المحطات الخاصة لإنتاج الدراما التلفزيونية، و على رأسها المسلسلات العديد من القضايا ومنها رغبة الشركات الخاصة في هذا المجال في تحقيق مكاسب مادية ذات طابع تجاري في أسرع وقت ممكن وفق قانون العرض والطلب، حيث غالبا ما تتجه إلى خلق ظروف إنتاجية تجارية لا تتوافق أبدا مع الظروف الصحيحة للكتابة وإنتاج المسلسلات، بحيث أنها تستبق الوقت الكافي لكتابة نص السيناريو والإنتاج إلى فترة زمنية أقصر مما يتطلبه هذا العمل، كما أن دخول الإنتاج الخاص للدراما أدى إلى تحكم هذه الأخيرة بالمضامين الفكرية لهذه المسلسلات⁸ وهنا يشير الناقد "نزار إبراهيم" في كتابه الجديد "الخطاب الفكري في الدراما السورية" إلى أهمية رأس المال في منطق اللعبة الدرامية، فيقول من استطاع أن يتحرر برأسماله استطاع أن يمتلك جزءا مهما من قراره وسيادة توجهه واستقلالية عمله وهذا ما دفع الدولة السورية إلى تشجيع الرأسمال الوطني لدخول هذا النوع من الاستثمار ومنحه التسهيلات والتفضيلات الكبيرة والمميزة و اهتمام و سخاء الدولة في دعم هذا التوجه الإنتاجي كصناعة سوقها وميدانها هو عقل الإنسان والمجتمع. ومع التأكيد على أن الدراما السورية كانت تعيش أزماتها المتعددة منذ سنوات في مستوى قوانين الإنتاج و دور الرأسمال الخارجي، و صولا إلى لعبة التوزيع و تحكّم الفضائيات الخليجية في هذا المستوى، فإنّ هذه الأزمة ستأخذ بعدا حادًا بعد مرور عدّة أعوام على اندلاع الثورة السورية، والتي عكست ظلّاتها على المشهد الدرامي ككلّ، ليس آخرها حسابات الربح والخسارة، و تخوفات المنتجين من لعبة التسويق، و ضعف الإعلان أو غيابها، و شبح المقاطعة السياسية وأشياء أخرى كثيرة.⁹

تشير الإحصائيات الأخيرة إلى أكثر من مائتي مليون دولار هي كلفة إنتاج الدراما العربية خلال شهر رمضان سنويا وقد تزيد، هذه الكلفة تعد الأضخم من نوعها في تاريخ قطاع القنوات العربية، و تتمثل السمات الأساسية لهذه الاقتصاديات في ارتباطها العضوي المثير للجدل بشهر رمضان الكريم، وتعود هذه السمة الرئيسية في الأساس إلى منطقتي دعمه الأرقام على نحو لا تخطئه عين، ف شهر رمضان يستحوذ بمفرده على حوالي 60% من إجمالي حصيلة الإعلانات في المنطقة العربية، وهي الحصيلة التي تبلغ قيمتها حوالي خمسة مليارات دولار أي أن كلفة الإعلانات العربية تكون أضخم ما تكون في هذا الشهر الفضيل. ولعل هذا الأمر يفسر لنا أمورا عديدة منها مثلا قيام رجال أعمال بافتتاح محطات تلفزيونية خاصة لا تعمل إلا في شهر رمضان هي محطات تدخل في سباقات ماراطونية محمومة تضم أكثر من 600 قناة فضائية مجانية، فالطبيعة الاجتماعية لهذا الشهر الفضيل تجعل المشاهدة العائلية للبرامج التلفزيونية تصل في العادة إلى ذروتها في هذا الموسم الاحتفالي، لكن إذا كانت كلفة الدراما الرمضانية قد بلغت هذا العام أكثر من 200 مليون دولار فإنها قد بيعت للمحطات الخاصة والعامة بهوامش أرباح طائلة مقابلة حقوق البث، هذه الأرباح الطائلة تفسر على الأرجح الأجور الضخمة التي يحصل عليها نجوم هذه المسلسلات. لكن ثمة من يتحدث في المقابل عما يصفونه بخلل هائل في توزيع هذه الملايين على أطراف العمليات الإنتاجية، وفي عدد كبير من هذه المسلسلات يستحوذ نجم المسلسل على نصف ميزانية العمل الدرامي بمفرده وهذا يعني اقتطاع الكثير من الحقوق المالية لنجوم الصف الثاني والثالث وحقوق الكومبارس ومن الحقوق المالية لبقية العاملين في المسلسل بمن فيهم كتاب الدراما والمخرجين والمصورين، كما أن الارتفاع المبالغ فيه في كلفة الدراما أسفر فعلا عن توقف الكثير من الأعمال عن التصوير أو تأجيلها. أما السؤال الذي قد يكون أكثر أهمية بالنسبة إلى الكثيرين فهو هل من حق التلفزيونات الرسمية العربية إنفاق أموال دافعي الضرائب على الترفيه في منطقة تعدّ من أكبر معاقل الفقر والبطالة في العالم.

وعلى الرغم من وجود العديد من المعايير الهامة لإنشاء منظومة متماسكة للإنتاج الإعلامي الدرامي العربي، إلا أنه يمكن اعتبار خمس نواحي على أنها الأكثر ضرورة، وذلك بحسب نتائج المقابلات مع شركات الإنتاج الإعلامية الإقليمية، وهذه النواحي هي: المواقع، البنى التحتية، والدعم المتوفر للإنتاج، العائدات على الاستثمار والحوافز، السلامة والبنى التحتية للمدينة، توقّر أصحاب المواهب. وعلى الرغم من الأداء القوي في بعض هذه المتطلبات إلا أنه لا يوجد حاليا منظومة إعلامية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا تبلي بلاء حسنا على مستوى عروض المواقع، إلا أن البنى التحتية للمدن تعدّ عائقا في أغلب الدول فيما عدا الإمارات العربية المتحدة، بالإضافة إلى ذلك فإن كل من البنى التحتية الخاصة بالإنتاج وتوفر أصحاب المواهب والحوافز المالية بشكل أحسن هي كل من الأمور التي لم يتم العمل على تطويرها بالشكل الكافي الذي يسمح بخلق منظومة إعلامية حيوية للإنتاج الدرامي.¹⁰

ثالثا: مسيرة الدراما العربية

إن مواصفات الإنتاج الجيد تتطلب تمويلا كبيرا لم تعد بعض شركات الإنتاج العربية الخاصة قادرة على تحمله ما يلجئها للعمل منتجا منفذا لبعض التلفزيونات الوطنية. والأخيرة كما يقول هؤلاء لا تقوم بهذا لوجه الفن بل لأسباب سياسية مثل إنتاج أعمال درامية موجّهة ضدّ ما يسعى بالإرهاب ما يجعل صنّاع

الدراما العربية رهنا لأجندات سياسية بالدرجة الأولى، ويقترح هؤلاء تحديد سوق الإعلام العربي ولو مؤقتا لحفظ الدراما من الزوال.

و أيا يكن الأمر فإن الطرفين يتفقان على وجود أزمة حقيقية تهدد مستقبل الدراما العربية بينما فريق ثالث يرى أن الأزمة لا علاقة مباشرة لها بالأزمة المالية، ولا تتخلى الدول العربية و المنتج العربي عن دوره المفترض تجاه مجتمعه، بل هي أزمة غياب رسالة و شح كوادر، و يقول هؤلاء بأن مستوى كتاب السيناريو العرب و أعدادهم في تراجع، و أن بعض المخرجين أصبح يبحث عن ربح و شهرة سريعين يجدهما لدى منتج لا يهّمه سوى الربح فتضيق بين هذا و ذلك ربح الدراما الحقيقية التي تعبر عن مجتمعات تتحوّل و تتساءل عن دورها بين الأمم، و يؤكد هؤلاء على ما يذهبون إليه بالقول أن أعمالا مثل "أم كلثوم" أو "الملك فاروق" و "التغريبة الفلسطينية" و غيرها كانت أعمالا ضخمة و مكلفة لكنها رحبت فنيا و جماهيريا لانسجامها مع ما يتطلع إليه المشاهد، فبادلها الأخير حباّ بحبّ بعيدا عن معايير الربح و الخسارة.

إن الدراما صناعة ثقافية مستمرة و الطلب عليها مرشّح للنمو باطراد خاصة في الأسواق التي تشكل الحصة الأكبر من السوق الإعلانية في المنطقة العربية و نقصد هنا دول الخليج التي باتت تشكل مقرا لمعظم الشركات العملاقة العابرة للقارات و التي تمتلك ميزانيات إعلانية ضخمة. و من ثم فإن صناعة الدراما ستمتدّد أفقيا و عموديا و سينشط الطلب على الكثير من الكفاءات التي تقع بشكل مباشر و غير مباشر في دائرة العمل الدرامي هذا بالإضافة إلى فوائد أخرى سوف تجنّبها هذه الصناعة التي لا تقدّر بثمن و تتمثل في الجانب المعنوي بتعزيز قيم الإنسان العربي العليا و ثوابته الوطنية و ثقته بنفسه و قدرته على التفوق و التميّز و الإنجاز، لتصبح هذه الأعمال و أصحابها رموز نجاح بكل معنى الكلمة، يساهمون في نشر هذا النجاح إلى قطاعات عديدة أخرى.

رابعاً: دور دراما المسلسلات التلفزيونية العربية في إنتاج وتشكيل القيم

تعد القضايا المجتمعية جوهر ومضمون الدراما التلفزيونية العربية إذ ركزت العديد من الأعمال الدرامية العربية على القيم السلبية كقيم الفساد وغياب الشرف والتفكك الأسري وظهور طبقات اجتماعية لا تقيم للثقافة وزنا ولا تبالي بالعلم وتزعزع المراكز العلمية وتدهور المكانات الاجتماعية فلم يصبح للفئات المثقفة الملامح التي كانت تميزها من قبل، كما أظهرت الدراما أن التمسك بالقيم الاجتماعية المقدمة والمبادئ النبيلة أمرا ليس واقعيًا.

بحيث تقدم الدراما التلفزيونية كثيرا من القيم الاجتماعية والأفكار في صورة عميقة سريعة التغلغل في النفس البشرية من خلال المعيشة، ففي كثير من الحالات يتأثر الفرد بمسيرة الأبطال من خلال العمل الدرامي وتضحيتهم في تحقيق أحلامهم وكسب معاركهم، فيتزوّد بقيم العمل والرغبة في استكمال مسيرته الخاصة في الحياة أو في تعامله مع المشكلات التي يواجهها، كما أنها تؤدي دورا كبيرا في كسب عواطف المشاهد لأن فيها الجاذبية القوية التي تجذب المتلقي وكل ما كانت الفكرة متسلسلة، كلما كان التفاعل أكثر وأكثر لأن من طبع الإنسان اكتساب التجارب من غيره لكي يسدّ الفراغ الموجود في داخله ويستفيد من تجارب الحياة، والإنسان يطمح إلى أن يكون أكثر من مجرد كيان فردي، بل هو يريد أن يكون أكثر اكتمالا ولا يكتفي بأن

يكون فردا منعزلا بل يسعى إلى الخروج من جزئية حياته الفردية إلى كلية يرحبها ويتطلبها، وانه يسعى إلى عالم أكثر عدلا وأقرب إلى العقل والمنطق ويريد أن يحوي العالم المحيط به ويجعله ملك يديه.11

وإذا ما أردنا أن تستمر الدراما التلفزيونية استثمارا صحيحا وناجحا وحكيما، فإننا نجني ثمار كثيرة من ورائها، لأنها أيسر السبل في الوصول إلى نفوس المتلقين من المجتمع ولها تأثير كبير وواسع في المتلقي ويمكن استثمارها في عملية التنمية والتطوير، ذلك لأن للدراما القدرة على تحقيق بناء القيم وتعليم أفراد المجتمع أسلوب الحوار وتغيير سلوك المجتمع، والدراما التلفزيونية يمكن وصفها بسلاح ذو حدّين حالها حال وسائل الاتصال الأخرى، والدراما تعتبر سلاحا سهلا وخطرا، ما يستدعي دعوة شركات الإنتاج العربية إلى أن يحاولوا إنتاج دراما تعالج مشكلات المجتمع وبطريقة فنية وحكيمة لكي لا يترك المتلقي العربي يتلقى الدراما الغربية الفاسدة، والملاحظ رواجها في الشبكات البرمجية للقنوات الفضائية كالمسلسلات الأمريكية المعادة أكثر من مرة والمسلسلات المكسيكية المدبلجة التي تدور في أغلبيتها حول الغرام والانتقام، بحيث يسهل على المشاهدين الذين يعيشون أوضاعا صعبة، التماهي مع أبطالها والمسلسلات العربية التي تحوز المسلسلات المصرية نسبة كبيرة منها أي بحدود 80%.

خامسا الخطابات القيمية في الدراما التلفزيونية العربية

تعتبر المسلسلات العربية التي يقدمها التلفزيون من الأشكال البرمجية التي تحظى بنسبة مشاهدة عالية من جانب الجمهور، والدراما التلفزيونية يمكن أن تحدث تأثيرا على المشاهدين صغارا كانوا أم كبارا .. ويلاحظ من مشاهدة هذه المسلسلات أنها تتناول موضوعات وقضايا مختلفة تتفاوت في جديتها في عرض مشكلات المجتمع، وتقدم هذه المسلسلات نماذج مختلفة من شرائح المجتمع كما أنها تقدم أدوارا اجتماعية متعددة الشخصيات، وكذلك تقدم أشكالا متنوعة لقطاعات المهن المختلفة،¹³ لذا فقد أصبحت الوظيفة الأساسية المنوطة بهذه الأعمال الدرامية عامة والمسلسلات التلفزيونية على وجه الخصوص وهي الإصلاح والتعليم...غائبة عن الواقع الذي نعيشه اليوم، إذ أن المتأمل لها يجد فجوة عميقة بين قيم الإسلام وتعاليمه وأدابه القويمة والتي كان من المفترض أن يؤمن بها أصحاب تلك المسلسلات ويدافعوا عنها ويحرصوا على ترسيخها كي يتمثلها الناس في علاقتهم برّبهم وفي أنفسهم ومع بعضهم البعض، وبين ما تتضمنه هذه المسلسلات من قيم لا يمتُّ كثير منها بصلة إلى العقيدة التي نعتقدها ولا إلى المبادئ والقيم والأخلاق التي ينبغي أن تصدر عنها وأن تتمثلها مع الحرص على إجراء بعض المقارنات اليسيرة في جوانب معينة من تلك المسلسلات.¹⁴

إنّ طرح القضايا الوطنية ومناقشة هموم المواطن و الاستلهام من التراث الشعبي والقيمي العربي لا يعني بالضرورة غياب المتعة عن المشاهد فالفن هو ذاكرة الشعوب منذ فجر التاريخ والأعمال السينمائية والتلفزيونية إذا ما قدمت بالشكل اللائق درامياً فهي تعدّ مصدرا هاما ورائعا للتوثيق التاريخي للتراث الشعبي والحضاري شأنها في ذلك شأن الفنون الأخرى في مختلف مجالاتها، بل قد تكون أكثر منها أهمية نظرا لسهولة تفاعل المشاهد معها ومعاشته للأحداث من خلالها، فالدراما فن يمكنه إعادة إحياء الموروث الحضاري الثقافي مرات عديدة برؤى فنية مختلفة كما

يسهم في تعريف الأجيال الجديدة به كلما توارى عن الأنظار.15

ولا يمكن الادعاء بأن مجتمعا ما يتماثل في كل ظروفه الاجتماعية وتسيطر عليه قيم ومواقف واتجاهات متماثلة يأخذ بها كل أفرادها، فهذا التطابق النمطي لا تعرفه المجتمعات البشرية بحكم اختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والتراثية لفئات هذا المجتمع، والأصح أن المجتمع الكبير ينقسم فيما بينه إلى مجتمعات صغيرة تسيطر على كل منها مجموعة خاصة من القيم والاعتبارات، إلا أن هناك عناصر يشترك فيها الجميع، وهي عليا بحكم المال أو النقود أو التعليم أو بسببها جميعا، وقيم واتجاهات هذه الفئات هي التي تسود عادة في المجتمع تفرض نفسها على الآخرين.16 و بدورها تشكل العديد من الفضائيات العربية اليوم قنوات لعبور الكثير من المفاهيم والقيم والعادات والتقاليد الغربية على مجتمعنا ويشاركها في ذلك كم لا يستهان به من الإنتاج الإعلامي العربي الذي لم يرق إلى مستوى مسؤولياته الوطنية والقومية في مواجهة الوافد من الإنتاج التلفزيوني الأجنبي وظل متخلفا فنيا وتقنيا إلا في بعض من إنتاجه المتميز كما هو حاصل في عدد بسيط من المسلسلات السورية والمصرية.17

والملاحظ للإنتاج الفني التلفزيوني العربي والمتمثل على وجه الخصوص بالمسلسلات المصرية والسورية تلك التحولات التي رسمت خارطة جديدة لنوعية الأعمال المعروضة وتشكيلا للذوق العام، وقد أحصت بعض الصحف والمواقع إنتاج الدراما العربية في شهر رمضان الفارط على سبيل المثال ما لا يقل عن ثمانين مسلسلا ثلاثون منها إنتاج مصري، وفي التقرير الأول من برنامج المرصد الذي تبثه قناة الجزيرة الفضائية لإحدى حلقات شهر جوان من سنة (2016) رصدت سيطرة الدراما الاجتماعية في مواضيع معظمها معاد وباهت مع سيطرة للخطاب السياسي الذي يكون أحيانا ذكيا وغالبا مباشرا وفجأ. واستعرض التقرير جملة من المواضيع التي اهتمت بها الأعمال الرمضانية ولاحظ أن ثمة حضورا قويا للعنف وجرائم القتل، ومن جانب آخر اجترار نجاحات الماضي كمسلسل ليالي الحلمية وحضورا للأجواء الشامية مع إسقاطات أكثر وضوحا على الأحداث التي تعصف بالمنطقة.18

وقد أدرك صناع الدراما أن عليهم أن يواكبوا اللحظة التاريخية المفصلية في تاريخ الشعوب، وأن يتطرقوا إلى أثر الثورات في النفوس، وفي تحديد ملامح الواقع السياسي الاجتماعي ضمن حلقات مسلسلاتهم، كما أن منتجي الدراما العربية انتبهوا إلى ضرورة أن يعكسوا توقعات المشاهدين، وأن يعبروا عن مشاعرهم وطموحاتهم وآمالهم. فكانت ثورة 25 يناير بالخصوص، وما اتصل بها من قضايا فساد وحملات انتخابية، وخطاب سياسي ديني من المواضيع الطاغية على الدراما الرمضانية على وجه الخصوص.19 ولئن دأبت الدراما العربية فيما مضى على تحاشي الارتطام بالرقابة، وتجنب المواجهة مع الأنظمة القمعية مؤثرة التركيز في الغالب على الماضي أو عرض بعض المشاكل المجتمعية أو الاجتماعية، فإن سياق الحراك فرض على المبدعين أن يسايروا النسق الثوري وأن يتعاملوا مع الواقع القائم عبر معالجته دراميا وهكذا لم تملص الدراما العربية من مسؤولية التفاعل مع الواقع الآتي وإعادة تشكيله من خلال رؤية فنية.20

وبعيدا عن نوعيات الأعمال الدرامية ومضامينها وأهدافها، أو حتى نجاحها وفشلها على الصعيد الجماهيري، فإن كثيرا من أصوات النخبة العربية المعنية تعالت ورفعت شعارات التنبيه والتحذير من مخاطر

ما تطرحه كثير من هذه الأعمال وطالبت بترشيح وفلتره كثير منها حتى لا يتعارض مع جدران منظومتي الأخلاق والقيم، فإن البعض قد نَوَّه إلى الآثار السلبية التي تخلفها زحمة الأعمال الدرامية على صعيد الأسرة وتربطها وتماسكها، بل تعالت أصوات المتخصصين الذين سارعوا إلى إثبات وجود علاقة سلبية مباشرة بين ما تطرحه كثير من الأعمال الدرامية، وما تتعرض له الأسرة من مشاكل وأزمات تصيبها بالتصدع والانهيار، وقد تباينت الآراء ما بين مؤيد ومعارض حول تأثير الدراما التلفزيونية على مفهوم وحقيقة الترابط الأسري والتواصل بين أفراد الأسرة الواحدة، وسلوك الشباب والأطفال واتجاهاتهم ونظرتهم إلى الحياة، وعلاقتهم الأسرية البينية، وانعكاسها أيضا على سلوكياتهم اليومية.²¹

ومع ازدياد عدد القنوات الفضائية المتخصصة في تقديم الدراما التلفزيونية والمسلسلات المختلفة، ازدادت الحاجة إلى التعرف على نوعية القيم الاجتماعية التي تعالجها الدراما التلفزيونية خاصة مع اتجاه عدد كبير من هذه الأعمال إلى تقديم نماذج معلبة وبلاستيكية للحياة وأن تفرغ القضايا الحياتية من مضامينها الحقيقية مقدّمة معالجات سطحية لها ومتجنّبة الخوض في أية قضية شائكة أو إشكالية، أو تسطيح هذا النوع من القضايا لدى تناولها وحرمانها من دلالاتها العميقة، لترسم لنا في النتيجة صورة شبحية للمجتمع.²²

و للإشارة فإن هذه الصورة الشبحية أضحت اليوم بعرف "السلطة" هي التي يجب أن تبقى لدى المتلقي على مستوى الوعي، وهي التي يجب أن تكون أساسا في صياغة قيمه ونظرتهم للواقع، لكي تبقى قضايا العمق دائما ضمن نطاق حرمة و قدسية الطابو و لتقع في مجال المسكوت عنه، وهنا نشير إلى أن الدراما العربية المنشودة اليوم هي الدراما التي تسعى إلى إثارة الوعي للنهوض بجمهورها نحو المستقبل عبر نافذة تلقي بالضوء على واقعه واحتياجاته و ما يعصف به من تناقضات ليكون قوام خطابها معاناة الجمهور العربي وآماله وطموحاته لا دراما تعمق الهوة بين القيم والآداب .

الهوامش:

¹ أمال قرامي، الأعمال الدرامية الرمضانية لموسم (1434هـ-2013م) هل نحن أمام معالجة فنية جديدة، مجلة الإذاعات العربية، مجلة فصلية تصدر عن إتحاد الإذاعات العربية، العدد 03، 2013، ص90.

² نفس المرجع، ص90.

³ برنامج المرصد، قناة الجزيرة الإخبارية، عدد يوم 2016/06/30.

⁴ جف يوسف وآخرون، الفرص والتحديات التي يواجهها سوق الإنتاج العربي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مجلة أوليفر وايمان Oliver Wyman، لجنة دبي للإنتاج التلفزيوني، مارس 2013، ص09.

⁵ جف يوسف وآخرون، مرجع سابق، ص17.

⁶ خنادق أهل الدراما السورية في ظل الثورة، جريدة القدس العربي، العدد7194، عدد يوم الأربعاء 1 أوت 2012، ص12.

⁷ خورشيد حروفش، الدراما التلفزيونية تلقي بإسقاطاتها على الأسرة والمجتمع "سلبا وإيجابا"، عبر موقع جريدة الإتحاد www.El itthad.ae، تاريخ الزيارة 2017/03/29، 20:00.

⁸ رمضان 2016، تراجع الإنتاج المصري و انتعاش الدراما السورية، موقع هافينغتون بوست عربي www.huffpost.com، تاريخ الزيارة 2017، 14:51/3/15.

⁹ رياض عصمت، واقع الدراما التلفزيونية العربية في نهاية القرن العشرين، مجلة الإذاعات العربية، العدد 4، 1999، ص29.

¹⁰ زينب سعدي، النقد الصحفي للدراما التلفزيونية العربية في مجلة الإذاعات العربية، رسالة ماجستير، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة محمد خيضر-بسكرة-الجزائر، 2011-2012، ص119.

¹¹ سعد لبيب، نحو قراءة جديدة للدراما التلفزيونية، مجلة الفن الإذاعي، العدد180، أكتوبر 2005، ص 11.

¹² نفس المرجع، ص11.

¹³ عبد العزيز بن حمد الحسن، فوضى الدراما العربية، جريدة الرأي الكويتية، العدد 16660، عدد يوم الاثنين 2014/02/03

- ¹⁴ عيبر محمد مصطفى، المعالجات التشكيلية للموروث الشعبي في الدراما العربية (السينمائية والتلفزيونية) ودورها في حماية التراث الحضاري، مؤتمر التربية الفنية والعنف، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، مصر، 5-6 أبريل 2011-بتصرف-
- ¹⁵ عدلي سيد محمد رضا، البناء الدرامي في الراديو والتلفزيون، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص 32.
- ¹⁶ عدلي سيد محمد رضا، صورة الأب والأم في المسلسلات العربية بالتلفزيون، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص 17.
- ¹⁷ عدنان مدانات، مسارات الدراما التلفزيونية العربية، دط، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، دت، ص 22.
- ¹⁸ عز الدين عطية المصري، الدراما التلفزيونية مقوماتها وضوابطها الفنية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية غزة، فلسطين، 2010، ص 605.
- ¹⁹ علي عبد الرحمان، للدراما وجوه عديدة، مجلة الفن الإذاعي الصادرة عن اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري، العدد 194، أبريل (2004)، ص 17.
- ²⁰ محمد سامي، في آليات التلقي والتعليب-الدراما التلفزيونية وإعادة إنتاج القيم الاجتماعية، جريدة قاسيون، العدد 383، يوم 24 سبتمبر 2008.
- ²¹ مساعد بن عبد الله المحيا، القيم في المسلسلات التلفازية، ط1، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، 1993، ص 14.
- ²² مصطفى المنساوي، تاريخ السينما العربية (مداخل للفهم والتفسير)، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 100، ص 13.

قائمة المصادر والمراجع

1. المحيا مساعد بن عبد الله ، القيم في المسلسلات التلفازية، ط1، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، 1993.
2. المنساوي مصطفى ، تاريخ السينما العربية (مداخل للفهم والتفسير)، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 100.
3. برنامج المرصد، قناة الجزيرة الإخبارية، عدد يوم 2016/06/30.
4. بن حمد الحسن عبد العزيز ، فوضى الدراما العربية، جريدة الرأي الكويتية، العدد 16660، عدد يوم الاثنين 2014/02/03.
5. خورشيد حرفوش، الدراما التلفزيونية تلقي بإسقاطاتها على الأسرة والمجتمع "سلبا وإيجابا"، عبر موقع جريدة الإتحاد www.El itthad.ae، تاريخ الزيارة 2017/03/29، 20:00.
6. خنادق أهل الدراما السورية في ظل الثورة، جريدة القدس العربي، العدد 7194، عدد يوم الأربعاء 1 أوت 2012.
7. رمضان 2016، تراجع الإنتاج المصري و انتعاش الدراما السورية، موقع هافينغتون بوست عربي www.huffpost.com ، تاريخ الزيارة 2017، 14:51/3/15.
8. سامي محمد ، في آليات التلقي والتعليب-الدراما التلفزيونية وإعادة إنتاج القيم الاجتماعية، جريدة قاسيون، العدد 383، يوم 24 سبتمبر 2008.
9. سعد لبيب، نحو قراءة جديدة للدراما التلفزيونية، مجلة الفن الإذاعي، العدد 180، أكتوبر 2005.
10. سعدي زنب ، النقد الصحفي للدراما التلفزيونية العربية في مجلة الإذاعات العربية، رسالة ماجستير، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة محمد خيضر-بسكرة-الجزائر، 2011-2012.
11. عبد الرحمان علي ، للدراما وجوه عديدة، مجلة الفن الإذاعي الصادرة عن اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري، العدد 194، أبريل (2004).
12. عدلي سيد محمد رضا، البناء الدرامي في الراديو والتلفزيون، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت.
13. عدلي سيد محمد رضا، صورة الأب والأم في المسلسلات العربية بالتلفزيون، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص 17.
14. عصمت رياض ، واقع الدراما التلفزيونية العربية في نهاية القرن العشرين، مجلة الإذاعات العربية، العدد 4، 1999.
15. عطية المصري عز الدين، الدراما التلفزيونية مقوماتها وضوابطها الفنية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية غزة ، فلسطين، 2010.
16. قرامي آمال ، الأعمال الدرامية الرمضانية لموسم (1434هـ-2013م) هل نحن أمام معالجة فنية جديدة، مجلة الإذاعات العربية، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الإذاعات العربية، العدد 03، 2013.
17. محمد مصطفى عيبر ، المعالجات التشكيلية للموروث الشعبي في الدراما العربية (السينمائية والتلفزيونية) ودورها في حماية التراث الحضاري، مؤتمر التربية الفنية والعنف، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، مصر، 5-6 أبريل 2011.
18. مدانات عدنان ، مسارات الدراما التلفزيونية العربية، دط، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، دت.
19. يوسف جف وآخرون، الفرص والتحديات التي يواجهها سوق الإنتاج العربي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مجلة أوليفر وايمان Oliver Wyman، لجنة دبي للإنتاج التلفزيوني، مارس 2013،.

